البصرة في خلافة المنصور

لجناب جميل افندي نخلة المدور

وكنت أجلس في البصرة عند عاملها الهيثم[١] بن معاوية الذي استضافني في مربعه ساعات طويلة يقصُّ لي فيها عن احوال الدولة وعن اهمية البصرة[٢] في الخلافة العبّاسية الحاضرة أعلى الله في الكون يدها وان المنصور كان ولج اليه في إقامة سورها وتقدَّم اليه ان يجمع المال لذلك من قاطني المدينة[٣] فجمع الأيدي عليه وحشد لبنائه من العملة والبنّائين المتين والآلاف فلم تمضِ الأزمان القليلة حتى فرغ من الجانب الكبير منه . وفي غد اليوم الذي وصلت فيه سألني الهيثم اذا كنت اريد ان اذهب معه الى المدينة فاذعنت لامره وسرنا والقوم يحفّون بنا حتى وصلنا الى قرب السور فرأينا السراد قات الكبيرة التي يصطنعون في ظلّها الأطيان الجافّة التي يستعملونها عندهم للبناء[٤] وكانت العملة عن بُعْدٍ كانها الجماعات من النمل يصعدون وينزلون على ذلك السور فسألت الهيثم اذا كان يلزم زمنٌ للفراغ منه فاجاب على انه قد ناهز التمام وان مداره بكليته سيكون نحوًا من اربعة اميال[٥] وبقينا ساعة طويلة نتفرّج على البناء الى ان تراجع معاوية الى محل قضائه وترك لي رجلًا من اشياعه يدلني على الطرق ويسوقني الى مواضع الفُرْجة

..... وكنت ظننت لاول وهلة ان البصرة مدينة صغيرة فلما تغلغلت في داخلها بدا لي انها متسعة الساحة كثيرة العمران[٦] فقلّ ان تجد بها ارضًا خالية من السكن ورأيت تربتها من الرمل الاحمر وابنيتها على الغالب من اللبن الّا ما كان من مسجد المدينة فانه مبنيٌّ بالجصّ في غاية الإحكام والاتقان اول ما بناهُ عتبة بن مروان في اوائل الاسلام[٧] بناهُ من القصباء لاجل ان يتزعهُ متى شاء ثم يعيد اقامته فلما تولّى ابو موسى الاشعريّ احكام البصرة بناهُ باللبن ثم جاء بعده زياد فزاد فيه وحسّنه وبنى المسجد بالجصّ وجاء من الاهواز باساطين غرسها به واقام سقفه بالساج واكمل زينته . ثم سرنا منه الى مسجد لامير المؤمنين عليّ في وسط المدينة على بُعد ميلين من السور وهو كبير جدًّا وصحنه مفروش بالحصباء الحمراء متناهي الانفساح فيه المصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان لمّا قُتِل[٨] ويصعد منه في السماء سبع صوامع تُبصَر عن عن بعد باعلى وهذا المسجد صلّينا فيه الجمعة لانه في ايام الاسبوع ما عدا الجمعة يُسَدّ حتى لا سبيل اليه فاذا كان الجمعة توارد اليه الناس من كل فجٍّ عميق[٩] ولما قضينا زيارته طفنا في اسواق المدينة فرأينا في حوانيت باعتها بضاعات غريبة الاشكال من كل اقليم وامّة وعلى الخصوص ما قدم اليها من مملكة

١ ابن الاثير ٢ الف ليلة وليلة ٣ ابن الاثير ٤ ابن حوقل وابو الفداء ٥ ابن بطوطة
٦ الماورديّ ٧ المسعودي ٨ ابن بطوطة ٩ ابن بطوطة

الهند[١] مما لم ازل له مثيلاً في الاقطار العربية . وفي كل الاسواق كنا نرى باعة يجلون على رؤوسهم اواني يملأونها من نوع من العسل يصنعونه من التمر ويسمونه السيلان[٢] وهو متعارف بينهم كثير الوجود عندهم كانه الجلاب في طيبه وكل ما رأيناه في اسواقها من عوائد اهلها ونصرفهم في المبيع وتقسيمهم كل فرقة الى حدة هو كالذي آلفته في هرمز وألفت مثله فيما بعد في بغداد على ما سأبينه لك. وقد اتضح لي ان للبصرة اهمية كبيرة في تجارتها لانه لا يخرج شيء من العراق ولا يسلك اليه الا منها[٣] ولذا كثر اعتناء الخلفاء بها فشادوا فيها المساجد الكبيرة والصروح والمقاصير واستعملوا عليها اذكى رجالهم عمالاً وقضاة كاستعمالهم عليها الهيثم بن معاوية حالاً وكعب بن سوار[٤] ويزيد بن منصور ومحمد بن سلمان من قبل[٥] فراج سوقها وتوفرت الصنائع عند اهلها[٦] فنمت وصارت في راس المدن[٧]

وأصل بناء هذه المدينة فيما حدثني الهيثم ان المسلمين في اوائل الاسلام افتقروا الى منزل ينزلون به في غزواتهم واذا دهمهم عدو التجأوا اليه فبعث عمر بن الخطاب عتبة بن مروان[٨] وأوعز اليه أن ارتد لنا موضعاً في جهة العراق قريباً من المرعى والماء والحطب فكتب اليه عتبة اني وجدت ارضاً كثيرة القصّة في طرف البرّ الى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء فكتب اليه عمر ان انزلها بقومك فنزلها وعمّرها في سنة خمس[٩] عشرة للهجرة . ولما ذهبت الى الخليل ودار بيننا الكلام على البصرة واخبار الاسلام الاول اخبرني ان البصرة انما اختطّت نكاية لاهل فارس وتحوّل التجارة من مدينهم اليها فلما اتسعت للمسلمين الفتوحات وقويت منهم الجنود وكثر فيهم الجهاد وعُمِّرت الارض بهم رأوا ان يستولوا على زمام التجارة والصناعة فبنوا هذه المدينة ودخلها الناس من يُسار وافاضل حتى غصّت باهلها ودبّ فيها العمران يقال انه كان في ايام زياد من جماعة مقاتلة العرب في البصرة ثمانون الفاً[١٠]

واهل البصرة اقوام فاضلون ونساؤهم خير نساء على وجه الارض[١١] ولهم على الغالب ايناس للغريب[١٢] فينسى الغريب بها اهله لما يرى منهم في فرط القيام بحقه . فلو كنت حللتُ في مدينة غير البصرة بعد ان فارقت الوطن وفقدت الاب والام لكنت تقطعت حسرة وحزناً. وهم يكدّون في طلب العلم والادب ولهم في ذلك من علوّ المنزلة ووفور الهم مكان عظيم يشهد لي بذلك انّا نراهم في تزاحم دائم مع اهل الكوفة في كثير من مباحث اللغة وضبط الالفاظ وتصحيح القواعد طولم يكونوا متبحّرين في الدرس ومدققين فيه لما كانوا كفوّا لذلك وانا ارى مع ضعف تحنيفي ان مذهب البصريين على الغالب من حيث اللفظ اصحّ من مذهب الكوفيين ..... واما اجسامهم فليست بقويّة البنية والوانهم مصفرّة كالسنة[١٣] حتى ضرب بهم المثل يتأتّى ذلك من اختلاف هواء المدينة فقد يختلف الهواء في اليوم

١ القزويني ٢ ابن بطوطة ٣ القزويني ويرى ذلك من كتب الجغرافية ٤ الخطيب
٥ الفداء وابن الاثير ٦ الجاحظ ٧ ابن خلكان ٨ ابن خلدون ٩ الشعبي وابن الوردي
١٠ يزيد ابن الرشك ١١ ابو عبيدة في اخبار البصرة ١٢ ابن بطوطة ١٣ ابن جزي

اشكالاً فيجيبون للس القُمُص مرّةً ولبس المبطّنات اخرى ولذلك سميت الرعناء وانشد الفرزدق

لولا ابو مالكَ المرجوُّ نائلهُ ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

وتبعد البصرة عن عبّادان حيث الشاطئ نحو ساعة زمانية وعندها تختلط مياه دجلة والفرات فتصبُّ في البحر الملح وتصير هذه المياه العذبة اذا قربت من البصرة مالحةً لان المدّ ياتي من البحر الى ما فوق البصرة بثلاثة ايام وماء دجلة اذا انتهى الى البصرة خالطهُ ماء البحر فيصير ملحًا[1]. وقد وجدت هذه المدينة قليلة الحرّ بالنسبة الى ما وجدته في غيرها من مدن العراق العربي لان المياه التي تاتيها من البحر ومن دجلة تبرّد نسيمها وتلطّف سمومها خلافًا لما يقولون من انها شديدة الحر جدًّا[2]. اما شتاؤها فلم احضرهُ بها ولكني سمعت من يقول انهُ جليد مصقع[3]

ومضت ايامنا الأولى في البصرة نتصفّح فيها القصور ونستقري الاماكن ونشاهد ما فيها من غرائب الاشكال. فوجدنا النصارى بها يعيشون في كل رَغَدٍ[4] وربما كان معاشهم أعلى مراتب من معاش سوقة المسلمين لانهم اكثر عادةً على الترف والترفُّه لقدم عهدهم بالحضارة لكنهم يعدمون من اشياء كثيرة اقلها انهم لا يستخدمون في اعمال الدولة من قاضٍ واميرٍ بلدٍ وناظر احكام وجابي صدقات[5] وتراهم مع هذا على انهم حالٍ عن مياقيت الاسلام الاولى التي كانوا يعيشون فيها في ربقة الذل .... يقال ان ركب المطايا كان حرجًا عليهم في شوارع المدينة اللهمَّ الّا من عجز منهم عن المسير واذا ركبوا كانوا يركبون في شق[6] اي ان تكون رجلاهم في ناحيةٍ واحدة وكان تقلد السيوف وحمل الاسلحة محرّمين عليهم ايضًا ومن دلَّ على عورة المسلمين واتى بناحيةٍ مع مسلة كان القتل جزاءهُ. فاين هذا ممّا هم عليهِ اليوم اذ لا تخيُّف عليهم ولا هم يُسألون

وفي اواخر ربيع آخر لما مضى عليَّ نحو من عشرين يومًا في البصرة تطلبت مربدها المعروف فاذا بهِ ساحة كبيرة على جهة البرية من المدينة[7] تنوخ فيها سرب الإبل ويُعلَّق فيها الاشعار التي تتناشدها العرب وهي كثيرة جدًّا يكاد لا ياخذها الاحصاء. ذكروا لي ان العرب ياتون في ايام من الاسبوع معلومة فيتناشدون الاشعار فيها ويبيعون ويشترون[8] ورأيت صحراء البصرة الى ما وراء المربد كلها وعرة مرملة لا يغرّد عليها طير ولا ينبت فيها شجر دون النخل لفقد المطر هناك بالكلية[9] غير ان على مقربةٍ من البصرة مدينة عامرة يشقُّها جدول من دجلة طوله اربعة فراسخ[10] على جانبيهِ بساتين وحدائق وتجتمع بها مراكب الهند[11] يقال لها أُبُلَّة وهي خصبة الجَنَاب جيّدة القاع والتربة لا تخرق اشعة[12] الشمس ارضها لالتفاف الشجر بعضهُ على بعض وهي التي تشبع البصرة من خيراتها الدائمة. ولما عدنا الى المدينة

١ الاشعري ٢ ابن خلكان ٣ ابن القرية ٤ محمد بن علي المصري المعروف بابن النقاش
٥ الماوردي ٦ ابن النقاش المصري ٧ تقويم البلدان ٨ ياقوت ٩ ابو الفداء
١٠ الخوارزمي ١١ الفدا ١٢ القزويني

رأينا امامنا الفضاء مملوءا بالنخيل[١] فقال لي بعض ارفاقي أتعلم ما قيمة هذا النخل قلت كم قال كل ذهب وفضة على وجه الارض لا يبلغ ثمن هذا النخل[٢] فسألته عن مقدار غرسه فقال يكون نحو الخمسين فرسخًا[٣]

وقد عرفت في البصرة شابًّا من نبهاء الناس اسمهُ ابو نواس[٤] كان فتًى يصغرني بثلاث سنين[٥] ولكنهُ كان يرى في عينيهِ من دلائل العقل والنباهة ما ليس هو عند الشيوخ وكان دائمًا يتردَّد عليَّ ويصحبني معهُ الى مواضع النزُّه وينص لي قصصًا ونوادر اضحك منها واستلفي على ظهري مع فرط ما كنت عليهِ من التهور والفمّ. وكان يتردَّد عليَّ غير ابي نواس رجل آخر اسمهُ النضر بن شميل وكان تلميذًا للخليل ابن احمد[٦] فطلبت اليهِ يومًا ان يذهب بي اليهِ فقادني مساء جمعة الى منزلهِ فاذا هو رجل من افاضل الناس[٧] الذين الفيتهم في اسفاري وابوهُ اسمهُ احمد وهو اوَّل مَن سُمّي باحمد بعد الرسول[٨] كان محبًّا للخير عارفًا بايام العرب واخبار الأوَّل الَّا انهُ كان في فاقة وفقر شأن علماء العصر[٩] وعندي انهُ اوَّل المتضلّعين في ابواب النحو لهُ فيهِ كتاب سمَّاهُ العين هو زينة وفخر لدولة الاسلام[١٠] وهو الذي وضع العروض السائر اليوم بين الناس[١١] وحصر اقسامهُ في خمس دوائر يتألَّف منها خمسة عشر بحرًا وأصل وضعهِ لهُ انهُ مرَّ بشارع النصَّارين فسمع دق المطارق باصوات مختلفة فوضع هذا العلم على مثالها[١٢]. وعن الخليل اخذ سيبويه علوم الأدب لانهُ كان طائر الذكر يشدُّ الناس اليهِ رحلهم من كل أوب فتمتع بالثقة والشهرة وهو حيٌّ كثر الله على الارض امثالهُ .....

---

١ الفرمالي ٢ قاله الرشيد ٣ الفرسخ ٤ محمد بن داود بن الجرَّاح ٥ الخطيب
٦ خلكان ٧ حميد الطويل ٨ المرزباني في المقتبس ٩ النضر بن شميل ١٠ المرزباني
١١ ابن خلكان ١٢ ابن خلكان ١٣ ابن خلكان

هذه النبذة من كتاب قد باشر تأليفهُ الشاب اللبيب جميل افندي المدوَّر صاحب تاريخ بابل والشور واعتمد ان ينحجهُ على منوال الرواية ويجمع فيهِ جلَّ ما اتصل الينا من اخبار العرب وآثارهم ومآثرهم وعلومهم وآدابهم وصنائعهم واخلاقهم وعوائدهم ويسند ذلك الى ثقات علمائهم ومؤرّخيهم كما رأيت في حواشي النبذة. فنطلب لهُ تمام التوفيق الى انجاز هذا الكتاب الذي لا تحصى فوائدهُ ولا تثمَّن فرائده

في الينابيع والماء تحت الارض

لجناب المعلم اسكندر البستاني ب. ع.

لا يخفى ان للماء مجالاً واسع الاكناف بين الهواء والبحار واليابسة فانهُ يصعد عن كل بقاع الارض بخارًا خفيًّا الى الجو حيث يتكاثف فيتحوَّل الى غيوم ويعود الينا مطرًا وندًى وثلجًا وبردًا وصقيعًا فكينما